البلاغة العربية فى دور نشأتها

تأليف الدكتور سيد نوفل

بقلم الأستاذ على العمارى

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

٢ — ولو أن هذه الروح جاهلية لوجدنا أثرها فى عصر البعثة . يوم تحدى القرآن العرب وأفحمهم إفحاما ، فقد لجأوا إلى الطعن عليه طعناً عاماً ؛ فقالوا سحر مفترى ، وقالوا أساطير الأولين ، ولو أن لديهم تلك الروح البيانية لكان من المنتظر أن ينقدوا القرآن على نحوها ، وأن يفزعوا إليها فى تلك الخصومة العنيفة التى ظلت نيفاً وعشرين عاماً ، هذا إلى أن تلك الروح فى النقد لا أثر لها فى العصر الإسلامى ، لا عند الأدباء ولا عند متقدمى النحاة واللغويين .

٣ — على أن من نحاة القرن الرابع من لم يطمئن إلى ماسبق ، فأبو الفتح بن جنى يحكى عن أبى على الفارسى أنه طعن فى صحة هذه الحكاية . هذه الزيادات لا تثبت الروح العلمية ، ولا التاريخ . وبعيد كل البعد أن توجد ملكة الفكر فى النقد الجاهلى ، وأن توجد على هذا النحو الدقيق ، الذى يحلل ويوازن ، ويفرق بين الصيغ تفريقاً علمياً .

٤ — وردت القصة فى الجزء الثانى من نقائض جرير والفرزدق ، وليس فيها إشارة إلى شىء من ذكر النابغة أو النقد الذى قيل فى عكاظ .

وهكذا يسوق صاحب تاريخ النقد عند العرب الأدلة التى لا تدع مجالا للاطمئنان إلى صحة هذه القصة ، ولكن المؤلف يكتفى بقوله أنها تلائم طبيعة الحياة الفنية ، ويرى ذلك داعياً إلى الاطمئنان إليها ، أما ما هى الحياة الفنية فى ذلك العصر ، وكيف

الاعتبار بالحرقة !

يرى الأستاذ محمد منصور خضر أن « الاعتبار بالحرقة » فى كلام الجنيد خطأ وأن صحته « الاعتبار بالحرفة » بمعنى المهنة أو الصنعة لأن التصوف الحق هو العمل والعمل عندهم هو الحياة .

وأرى أن « الاعتبار بالحرقة » هو الصحيح هنا ومعناه الحب والتشوق ذلك الحب الذى يشغل الإنسان عما سوى الله ويزداد حرقة وحرارة بازدياد القرب ومعنى قول الجنيد إنه ليس الاعتبار بالظاهر من اتخاذ الشارات ولبس الصوف وأكل الخشن وإنما الاعتبار بالباطن وما وقر فى الصدور من الإخلاص والصدق والحب والمراقبة — والمواجيد الأخرى .

ومن ناحية سلبية يمكن القول أن التجرد عند الصوفية أسمى من التعلق بالاسباب ولكن الصوفى قد لا يتأتى له من الاجتهاد ورفع الهمة حتى يتحقق بالتجرد فيأخذ بالأسباب ويدعو السالكين فى يده دخولهم فى الإرادة إلى ذلك . فرفع الهمة والأخذ بالأسباب معاً فى نفس الصوفى يجعل تزايد هذا من تناقص ذا . ولكن غاية الصوفى التجرد ورفع الهمة حتى قال أحدهم « من تزوج أو تحدث أو سافر فى طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا » وشاور أحد المريدين الخواص فى أن يعتزل الناس ويعتكف فى المسجد فقال « إن كنت على إيمان إبراهيم الخليل فاعتكف » وفى حكم ابن عطاء الله « إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك فى الأسباب من الشهوة الخفية وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد انحطاط من الهمة العلية » .

فالاعتبار بالحرفة أمر لا يتفق والروح الصوفى الذى ينزع إلى الخروج إلى الله والتجرد من الأسباب والتحرر من رق الآثار والأكوان .

أحمد الطائف

ليسانس فى التاريخ

تلاءمها هذه القصة ، فلا خبر ، ولا أثر ؟

٢ — ذكر مذهب الجاحظ فى إعجاز القرآن ، فقال إنه فى نظم القرآن ، ولكن الله صرف العرب فى الوقت نفسه عن معاولة معاكاته خشية الفتنة . ومن سريعاً ، واكتفى بنقل أثبته من كتاب الحيوان والمؤلف فى نشأة البلاغة فى حاجة شديدة إلى أن يتحدث عن مذهب (الصرفة) وما كان له من الأثر فى نشأة هذه العلوم ، والمؤلف فى بلاغة الجاحظ على الخصوص لا يقبل منه أن يلمس هذا المذهب بالجاحظ ثم يمر كأن الأمر من الهوان بحيث تكفى فيه الكلمات . بل كان الواجب أن ينقب فى كتب الجاحظ عن هذا المذهب ، ويحققه ، ويبين مدى تأثر الجاحظ به ، ومدى تأثيره فى علماء عصره ، وقد رجعت إلى النص الذى نقله من كتاب الحيوان ، فبدا لى فيه أمر أنا ذاكره بعد أن أثبت هنا ما يقوله الرافعى رحمه الله فى نسبة مذهب الصرفة إلى الجاحظ قال عن هذا المذهب أولا « وهو عندنا رأى لو قال به صبية المكاتب وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدءوه لكان ذلك من تخاليطهم فى بعض ما يحاولونه إذا عمدوا إلى القول فيما لا يعرفون ليوهموا أنهم قد عرفوا » ثم قال ثانياً عن مذهب الجاحظ نفسه : (أما الجاحظ فإن رأيه فى الإعجاز كرأى أهل العربية ، وهو أن القرآن فى الدرجة العليا من البلاغة التى لم يعهد مثلها ، وله فى ذلك أقوال تشير إلى بعضها فى موضعه ، غير أن الرجل كثير الاضطراب ، فإن هؤلاء المتكلمين كأنما كانوا من عصرهم فى منخل ... ولذلك لم يسلم هو أيضاً من القول بالصرفة ، وإن كان قد أخفاها ، وأومأ إليها عن عرض ، فقد سرد فى موضع من كتاب الحيوان طائفة من أنواع المعجز وردها فى العلة إلى أن الله صرف أوهام الناس عنها ، ورفع ذلك القصد من صدورهم ثم عد منها « ما رفع من أوهام العرب ، وصرف نفوسهم عن المعارضة لقرآنه بعد أن تحداهم بنظمه » وقد يكون استرسل بهذه العبارة لما فى نفسه من أثر أستاذه ، وهو شىء ينزل على حكم الملابسة ، ويعترى أكثر الناس إلا من تنبه له ، أو نبه عليه ، أو هو يكون ناقلا ولا يدرى » .

قلت وفى كلام الجاحظ ما يؤيد الشطر الأول من هذا الكلام وهو أنه يرى فى الإعجاز ما يراه أهل العربية ، فقد قرأت فى كتابه البيان والتبيين تصريحاً بأن العرب يعجزون أن يساموا الرسول فى البلاغة ، قال « فإذا رأت مكانه — يريد النبى صلى الله عليه وسلم — الشعراء ، وفهمته الخطباء ، ومن تعبد المعانى ، وتعود نظمها ، وتقضيدها وتأليفها وتنسيقها ، واستخراجها من معادنها وآثارها من أماكنها علموا أنهم لا يبلغون بجميع ما معهم مما قد استفرغهم ، واستغرق مجهودهم ، وبكثير ما قد خبأوه قليلا مما يكون معه على البداهة والفجاءة من غير تعدم فى طلبه ، واختلاف إلى أهله » . فإذا كان هذا رأيه فى بلاغة الرسول ، فلا يمكن أن يكون رأيه فى بلاغة القرآن ما يفهمه العلماء من مذهب الصرفة ، وهو أن العرب قادرون على الإتيان بمثل القرآن ، ولكن الله صرفهم عن أن يعارضوا على أنه فى ذلك الموضع[1] من كتاب الحيوان التصريح بعجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن قال : « وفى كتابنا المنزل الذى يدلنا على أنه صدق نظمه البديع الذى لا يقدر على مثله العباد . الخ » .

هذا . والذى يظهر — والله أعلم — أن القائلين بالصرفة لم يكونوا يقصدون إلى أن العرب قادرون على الإتيان بمثل القرآن ، وأن الله صرفهم عن هذا الإتيان ، حتى يثبت أن القرآن فى متناول البشر ، كما فهمه طائفة من العلماء ، وأطالوا الرد عليه ، ويدعى أن هذا لا يشمل آراء أولئك الذين صرحوا فى مقالاتهم بأن القرآن غير معجز وأن الناس يقدرون على مثله ، وعلى أحسن منه ، من أمثال الجعد بن درهم — وإنما الذى أفهمه من مذهبهم أن الله منع العرب أن يأتوا بمعارضة للقرآن ، مع أنهم غير قادرين عليها ، وإنما صرفهم لئلا تكون فتنة ، وهذا صريح فى كلام الجاحظ حيث يقول : « وصرف نفوسهم — يعنى العرب — عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول بنظمه ، ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلف بعضهم ذلك لجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب ، والنساء وأشباه النساء ، ولألقى ذلك للمسلمين عملا ، ولطلبوا المحاكمة والتراضى ببعض الأعراب ، ولكثر القيل والقال » وهذا كلام واضح جداً وصريح فى أن الجاحظ لا يجعل الصرف عن المعارضة هو السر فى الإعجاز ، وإنما يجعل الصرف

(١) ج ٤ ص ٣٢

أمراً ثانوياً جاء بعد التحدى والعجز ، وأنهم لو عارضوا لوجدوا من يستجيد وكما يقول في موضع آخر « فلم يرم ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامى عليه ، ويكابر فيه ، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض ، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم واستجابة لغتهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم وكثرة من جاء منهم ، ومعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله وأفسد لأمره ، وأبلغ في تكذيبه ، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس ، والخروج من الأوطان ، وإنفاق الأموال » ونحن يعنينا الشطر الأول من هذا الكلام ، أما الشطر الثاني فسنفناه لأنا نلمح فيه أن الجاحظ يرى أن المعارضة كانت ميسورة للعرب ، ولكن بعد التدقيق في كلامه يظهر أنه لم يجعل هذا العجز سراً من أسرار الإعجاز ، بل جعله دليلا على أن المعارضة لم تكن ، ولم يكن ميسوراً لهم أن يأتوا بسورة ولو مفتراة ، وليس أدل على عجزهم عن المعارضة من أنهم تركوها وهي — لو أمكنت — كانت أفسد لأمر الدعوة ، وأسرع في تفريق أتباعها ، ومما يؤيد ما ذهبت إليه ، أن لكل من الجاحظ ، وأستاذه النظام — وينسب إليه مذهب الصرفة — رأياً في الإعجاز غير الصرفة ، فالنظام يرى أن الإعجاز كان من حيث الأخبار عن الأمور الماضية ، والآتية ، والجاحظ يرى الإعجاز في النظم ، على أن تزييد العلماء في ماهية المذهب يقوى جانبنا (انظر الطراز ج ٣ ص ٣٩٢) . ومهما يكن من شيء فأنا أستبعد أن يكون الجاحظ قائلا بالصرفة على ما فهمها العلماء ، وأرجح أن يكون ذكرها على المعنى الذي أشرت إليه ، وفوق كل ذي علم عليم .

٤ — في حديثه عن السجع ذكر عبارتين تؤديان إلى حكمين متناقضين وهما يتعلقان بأمر ذي بال ، قال : « وليس من شك في أن معارضة المتنبئين للقرآن ، واصطناعهم السجع في هذه المعارضة كان له أثر كبير في كراهية النبي والخلفاء له ، وخشيتهم الفتنة به » ومعنى هذا الكلام أنه كان للمتنبئين معارضات ، ثم قال : « وقد روت كتب السيرة نماذج من سجع مسيلمة وطليحة وسجاح وغيرهم تصدد رواتها — في أغلب الظن إلى تسخيف أولئك المتنبئين » ومعنى هذا أن هذه المعارضات من وضع الرواة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن مسيلمة تنبأ في آخر حياة الرسول ، فهل بلغت معارضاته حداً جعل الرسول يكره السجع؟ أما طليحة ، فإنه وإن كان تنبأ في حياة الرسول ، إلا أن أمره لم يعظم إلا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر الرافعي أنه لم يدع لنفسه قرآناً لأن قومه من الفصحاء ولم يتابعوه إلا عصبية ، وإنما كانت له كلمات يزعم أنها أنزلت عليه ، ولم نظفر منها بشيء ، في أي كتب السيرة وجد المؤلف معارضة لطليحة ؟ أما أنا فقد عثرت على كلمة له نشرت في مقال سبق من الرسالة ولكني لم أظفر بها في كتب السيرة ، وأما سجاح فتنبأت بعد وفاة الرسول ، ولم تدع قرآناً وإنما كانت تزعم أنه يوحى إليها ، أفليس من حق العلم على المؤلف أن يحرر عباراته ، ويحققها ، ولا يلق القول هكذا . . ؟!

٥ — وقد سبق أن ذكرت أن في الكتاب مآخذ كثيرة جزئية ، وأني سأعرض عنها ، وسأفي ، ولكني لا أجد مندوحة من ذكر بعض أغلاط ، ربما لبست على الناشئة من قراء كتابه : ذكر أن الخطبة التي لم تشتمل على شيء من القرآن تسمى (بتراء) وذكر مثلا لذلك خطبة عمران بن حطان ، وليس الأمر كذلك فالخطبة البتراء هي التي لم يحمد الله فيها ابتداء ، وذكر كذلك الجاحظ في أول الجزء الثاني من البيان ، وذكرته معاجم اللغة ومثلت له بخطبة زياد بن أبيه ، ولا محل للاطالة ، وأما خطبة عمران وأشباهها مما لم يشتمل على شيء من القرآن فتسمى (شـــوهاء) .

وذكر قوله تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً) وقال إن في الآية استعارة ، والذي نعرفه أن في الآية مجازاً مرسلا ، والفرق بينهما معروف للمؤلف .

ولا يسعنا في النهاية إلا أن نثني على المؤلف ، ونرجو أن تتبع محاولته هذه محاولات ، وأن يكون — كما يقول — بداية تنتهي إلى غاية .

علي العماري